نظرية المثير والاستجابة في الشخصية لدولار وميلير

أ.م. رقية رافد شاكر

الجامعة العراقية- كلية التربية للبنات

Mail: ruqayya.shakir@aliraqia.iq

الملخص:

إنَّ نظريات التعلم والسلوك المتعلقة بالشخصية طورت من تجارب معلمية ودراسات مخبرية وليست من واقع او عمل عيادي مع المرضى، بينما يؤكد اصحابها انهم اسسوا نظرياتهم وافاداتهم معتمدين على شواهد تطبيقية واظهروا رغبة محددة لتقديم فروق نظرية للاختبارات الملاحظة. السلوكيون ادركوا اكثر من اصحاب النظريات الاخرى، ان النظرية مفيدة او غير مفيدة من خلال تأثيرها في الكشف عن التوقعات التي يمكن فحصها. كنظريات علمية، نظريات التعلم والسلوك كانت مثيرة وجذابة لعدد من الاخصائيين النفسيين لانها تمكننا من الاحتكام الى الشواهد الصادقة.

بعض المثيرات اكثر قرباً لكائنات معينة كما ان الاستجابات المحتملة ايضاً تختلف، فنقر الحمام وشخبطة الدجاج وقلب الخنازير للتربة، من الصعب، ان لم يكن مستحيلاً تغييرها لذا فالواحد منا لا يستطيع ان يعمم بسهولة من فأر الى كائن بشري.

فإن دولار وميلر قد أخذا عدداً من مفاهيم التحليل النفسي الفرويدي واذابوها في المضامين التخيلية للنظرية العلمية. فلقد زودا مفاهيم فرويد بتعاريف عملية اجرائية واظهرا انه يمكن فحصها انه يمكن فحصها واختبارها. الكثير منا يعتبر هذا مساهمة جيدة اضافت الحيوية والموضوعية لمفاهيم فرويد، اما موضوع استفادة مدرسة التحليل النفسي من ذلك فمسألة متروكة للنقاش والجدل. البعض يحب ان يشير الى انه ومن خلال الترجمة، مفاهيم فرويد فقدت ديناميكية قيمة وفرغت من هدفها الاصلي. الاخرون يعتقدون ان دراسات فرويد المتعمقة والعيادية للبشر اكثر فهماً لدينامية الشخصية. الانسانية من دراسات دولار وميلر على الفئران، ولكن مع كل ذلك فوجهات نظر دولار وميلر صارت اساساً في دراسات الشخصية منذ طباعتهما ونشرهما لكتابهما الرئيسي (الشخصية والعلاج النفسي). نظام دولار وميلر في دراسة الشخصية يهدف الى منافسة او مضاهاة النماذج او المناهج العلمية في فهم الشخصية.

الكلمات المفتاحية: (بناء الشخصية، مكونات الشخصية، آثار الخوف، الصراعات اللاشعورية).

Dollard and Miller's Stimulus-Response Theory of Personality

Ruqayya Rafid Shakir

University of Iraq - College of Education for Girls

Mail: ruqayya.shakir@aliraqia.iq

Abstract:

Theories of learning and behavior related to personality were developed from teacher experiments and laboratory studies, not from reality or clinical work with patients, while their owners assert that they based their theories and statements on applied evidence and showed a specific desire to provide theoretical differences to observed tests. Behaviorists realized more than other theorists that a theory is useful or not useful through its effect in revealing expectations that can be tested. As scientific theories, theories of learning and behavior were exciting and attractive to a number of psychologists because they enable us to resort to valid evidence.

Some stimuli are more closely related to certain organisms, and the possible responses also differ. The pecking of pigeons, the scribbling of chickens, and the turning of the soil by pigs are difficult, if not impossible, to change, so one cannot easily generalize from a mouse to a human being. Dollard and Miller took a number of Freudian psychoanalytic concepts and dissolved them into the imaginative contents of scientific theory. They provided Freud's concepts with operational definitions and showed that they could be tested. Many of us consider this a valuable contribution that added vitality and objectivity to Freud's concepts, but the question of how the psychoanalytic school benefited from it is a matter of debate. Some like to point out that in translation, Freud's concepts have lost a valuable dynamic and have been emptied of their original purpose. Others believe that Freud's in-depth, clinical studies of humans are a better understanding of the dynamics of human personality than Dollard and Miller's studies of rats, but Dollard and Miller's views have nevertheless become fundamental to personality studies since the publication of their major book, Personality and Psychotherapy. Dollard

and Miller's system of personality studies aims to compete with scientific models or approaches to understanding personality.

Keywords: (character building , personality components , effects of fear , unconscious conflicts).

نظرية المثير والاستجابة في الشخصية لدولار وميلر :

يولد الطفل لا حول له ولا قوة ولكنه مزود بعدد من الدوافع الاولية مثل الجوع والعطش وليس لديه اية دوافع اخرى مثل الموجودة عند الراشدين، هذه الدوافع التي تميز الراشد كشخصية في مجتمع معين او ينتمي الى طبقة اجتماعية معينة مهتمة محدودة طبقاً للدوافع المهمة مثل الرغبة في الحصول على المال، ومثلاً الطموح ان يكون فناناً او طالب علم او ما يشعر به الفرد من ذنب او ما يعانيه من مخاوف كل هذا من البيئة.

و نناقش جوانب نظرية المثير والاستجابة في النقاط التالية :

١- البناء structure

لفظ الاستجابة هو مفتاح نظرية المثير والاستجابة ويرى هِل ان الرابطة بين المثير والاستجابة تسمى العادة habit وبناء الشخصية او تكوينها هو في جوهره مجموعة من العادات التي تعلمها الكائن الحي او الفرد.

وكذلك بالنسبة لفكرة هِل عن الدوافع يعرف بانه مثير قوي الى درجة ان يدفع السلوك ويحركه . وهناك فرق بين الدوافع الاولية الولادية الفطرية وبين الدوافع الثانوية المكتسبة ذلك ان الدوافع الاولية ترتبط بظروف فسيولوجية عند الكائن الحي اما الدوافع الثانوية فهي متعلمة مكتسبة.

ومن الدوافع الهامة المكتسبة دافعا القلق والخوف وهما قائمان على اساس دافع فطري هو الالم ٠ او الاستعداد الفطري عند الانسان للشعور بالالم بسبب مثيرات بيئية والخوف من الممكن ان يتعلمه الكائن الحي بسرعة من مواقف محدودة).

٢- نمو الشخصية

تفسر نظرية المثير والاستجابة المتعلم على انه تجميع تراكمي لعادات تكونت وارتبطت ببعضها البعض في ترتيب (تدرجي) تبعاً لاهمية كل منها وتفسير دولار وميلر للتعلم الاجتماعي قائم على مفهوم التقيد imitation كما ان عملية التلقين تعتمد على التدعيم الايجابي للسلوك فترى طفلاً يسمع اباه يفتح باب الشقة فيسارع اليه، ويرحب به هنا يعطيه والده بعض الحلوى، وعندما تشاهد اخته الصغرى ذلك فانها تقلد اخاها لتحصل هي الاخرى على الحلوى. ومن خلال عملية التعميم تقلد السلوكيات الاخرى الخاصة بأخيها وتؤكد دراسات هِل على اهمية المكافأة في عملية تربية الاطفال وتنشئتهم الاجتماعية ومثال ذلك انه في احدى دراسات هِل عن تربية الاطفال تبين ان اعلى الاطفال في السمات الايجابية كانت عند الاطفال الذين تتسم امهاتهم بعلاقات الحب والدفء ولكنها اي الأم في ذات الوقت تستخدم اسلوب التلميح بالكف عن مظاهر الحب والحنان كأسلوب لضبط الأمور.

وتؤكد نظرية المثير والاستجابة على اهمية التعلم او اكتساب صفات الشخصية من خلال الروابط بين المثير والاستجابة وطبقا لما يقدمه الوالدان من ثواب او عقاب على السلوكيات المختلفة للاطفال هذا بالاضافة الى ما يقدمه الاخرون المحيطون بالطفل من ثواب او عقاب على نواحي السلوك المختلفة.

٣- الاضطراب النفسي

كان دولار وميلر من السابقين في ربط مبادئ نظرية التعلم بموضوع الشخصية خاصة وموضوع السلوك اللاسوي وفي هذا السياق اكدا على اهمية مفاهيم الدافع وصراع الدوافع والقلق والتدعيم.

واكد دولار وميلر على اهمية تعلم الاطفال الاساليب المقبولة اجتماعياً لارضاء الدوافع خاصة تلك الدوافع المتصلة بتعلم الطعام والشراب وتدريب الحمام toilet training والسلوك الجنسي والسلوك العدواني، وعندما يدرجون في النمو اي الاطفال فانهم قد يرتكبون بعض الاخطاء في طريقة ارضاء الدوافع وهنا يكون العقاب من الوالدين ونتيجة هذا العقاب فان الطفل يكون لديه دافع الخوف في علاقته باحد المثيرات.

٤- انواع الصراع

أ- صراع الاقدام والاحجام : خلال عملية النمو قد يحدث ان نفس المثير يؤدي الى مستجدات مختلفة ويؤدي ذلك الى مايسمى صراع الاقدام والاحجام، مثل شاب يريد مغازلة فتاة هذا اقدام ولكنه يخاف من توبيخها له فهذا احجام.

ويرى دولار وميلر ان صراع الاقدام والاحجام من المصادر الاساسية للعصاب نتيجة لهذا الصراع، وما يصاحبه من قلق يتكون عرض من شأنه ان يخفف القلق ويريح الشخص من الضغوط التي يؤدي اليها الصراع ويعطي دولار وميلر مثالاً لحالة فتاة ٢٣ سنة حدثت لها مخاوف لا اساس لها اي مخاوف مرضية او مخاوف شاذة ذلك انها كانت حريصة على عدد ضربات قلبها لانه في ضنها ان قلبها سوف يتوقف ان هي اغفلت احصاء معدل ضرباته، وبدأت متابعتها عندما اصيبت بحالة اغماء وهي تتسوق من احد المحال التجارية، هنا حدث لها خوف من الخروج وحدها من المنزل، ولقد فسر دولار وميلر هذه الاعراض على انها مظاهر للصراع حول الخوف من الجنس وعندما كانت هذه الفتاة تسير في الشارع وحدها ينتابها الخوف من الاغواء الجنسي وتشعر ان شخصاً ما سوف يحاول مواقعتها جنسياً، وحدث بالنسبة لهذه المرأة او الفتاة ان ازدياد الرغبة الجنسية ادت الى الشعور بالقلق والشعور بالذنب بحيث كان من الضروري البقاء في المنزل وعدم الخروج منفردة الى الشارع، كما ان احصاء عدد ضربات القلب رغم كذلك لان عملية احصاء ضربات القلب جعلها تركز في هذه المهمة بحيث لايكون لديها متسع من الوقت لكي تفكر في موضوع الجنس، وهذه الحالة تبين لنا كيف يفسر دولار وميلر السلوك حيث يستعملان المصطلحات الخاصة بهم (الدافع وصراع الدافع والقلق والتدعيم) والحالة السابقة تدل على كيفية تأثير صراع الاقدام والاحجام في احداث المرض النفسي.

ب- صراع الاقدام الاقدام : هو اختيار الشخص لاحد امرين كلاهما حلو او كلاهما لذيذ، مثل ان يختار الشخص بين امرين ان يذهب لمشاهدة فيلم او يذهب الى المسرح او تختار الفتاة بين عريسين متقدمين كلاهما من الاغنياء ومن الناجحين وهذا الصراع نادر في الحياة .

ت- صراع الاحجام الاحجام : يختار الانسان بين امرين وكلاهما شر او احلاهما مر، كأن تختار الزوجة البقاء مع زوج تكرهه او تطلق منه وتشرد ابناءها : كلا الامرين صعب.

٥- الحاجات الاولية والتعلم :

يبدأ الطفل الوليد حياته وهو مزود بمجموعة من الحاجات الفطرية الاولية مثل الحاجة الى الطعام والماء والاوكسجين والدفء ورغم ان هذه الحاجات فطرية الا ان السلوكيات التي ترتبط بها متعلمة مكتسبة ومثال لذلك عملية الرضاعة فان مص الثدي عند الطفل هو استجابة عندما تحك الام حلمة الثدي في فم الطفل فيلقم الثدي ويأخذ في الرضاعة كعملية فطرية.

الافتراضات الاساسية لمدرسة المثير والاستجابة

الافتراض الاساسي عند مدرسة المثير والاستجابة ان السلوك مكتسب متعلم وهذا السلوك يمكن ان يحكم عليه من الابعة عوامل تشترك فيها الشخصيات جميعاً السوية وغير السوية هذه العوامل الاربعة هي :

١- الدافع drive
٢- الشعر cue
٣- الاستجابة response
٤- التدعيم reinforcement

ولكي نتعلم لابد ان نريد شيئاً want وان نلاحظ شيئاً notice وان نفعل شيئاً do وان نحصل على شيء get اي انه لكي نتعلم يجب ان نريد وان نلاحظ وان نفعل ثم نحصل ونذكر مثالاً عن احد حيوانات التجارب في المختبر النفسي ، هذا الحيوان يدفعه دفع الجوع وهنا ينشغل بالبحث عن الطعام حتى يتفق له ان يرى رافعة – الرافعة هنا مهدي – هنا استجابته تكون اولاً طبعاً بالصدمة فيضغط على الرافعة صدفة بحيث تسقط امامه حبة من الطعام يلتهمها فرحاً وفوراً، هذا الارضاء للدافع يعتبر مكافأة وتدعيماً، وعندما يجوع الفأر مرة ثانية فانه في اغلب الاحوال سيقوم بالضغط على الرافعة او القضيب حتى يتلقى الطعام ذلك ان الارتباط بين المثير المشعر هو القضيب او الرافعة او الاستجابة

هذه الرابطة قد تم تقويتها، وفي الحالات الثانية سوف يتجه الفأر فوراً الى الضغط على القضيب او الرافعة ليحصل على الطعام.

ونوضح ذلك مرة ثانية ونقول ان دولار وميلر يريان ان المثير القوي سواء كان داخلياً او خارجياً سوف يستثير الكائن الحي للرد على هذا المثير او الاستجابة طبقاً له او الاستجابة حياله وكلما كان المثير او الاستجابة طبقاً له او الاستجابة حياله وكلما كان المثير او الاستجابة حياله وكلما كان المثير قوياً كلما كانت قوة الاستجابة لا يمكن ان يحرك السلوك مثل الصوت المرتفع. ومن الامثلة على المثيرات القوية تقلصات المعدة او الامعاء او مايسمى بالمغص. والمغص الكلوي لنتائج عن وجود حصوات بالكلى او التهاب بها او الضوضاء العالية بما يتجاوز ١٠٠ ديسيبل و ١٢٠ ديسيبل وعندما يكون اي مثير قوياً يكون دافعاً مثل الجوع والعطش والتعب والالم الجسمي، والجنس هي الاسس اولية للدوافع وهذه المثيرات هي دوافع اولية ولادية وقوة الدوافع الاولية ترتبط بمدى ارضاء هذه الدوافع وكلما كان الحرمان منها شديداً كلما كان الدافع قوياً.

اما المشعر ومثير الشخص للاستجابة حيث تحدد المشعرات او المهديات متى يستجيب واين يستجيب واي الاستجابات سوف يختار .

مثلاً بالنسبة للأطفال في المدرسة عندما يدق جرس الفسحة او جرس الاستراحة وعند ذلك يترك الاطفال دروسهم ويبادرون الى فتح حقائبهم وتناول ما فيها من اطعمة واشربة.

الصراع العصابي neurotic confict

مثل فرويد اعتبر دولار وميلر ان الصراع اساس كل سلوك عصابي، وعند فرويد فان الصراع العصابي يحدث بسبب الصدام بين الدوافع الغريزية التي تتطلبالارضاء وبين الموانع التي تحول ارضاء هذه الدوافع من الموانع التي اقامها المجتمع وقد طبق دولار وميلر نفس الفكرة على نظرية المثير والاستجابة .

ومن وجهة نظر دولار وميلر ان الخوف الشديد (القلق هو دافع متعلم يؤدي الى الصراع) وهو استجابة لدوافع اخرى قوية مثل الجنس والعدوان وعندما يبدأ شخص عصابي في سلوك يؤدي الى تحقيق التوتر الناتج عن دوافع الجنس او العدوان يتولد لديه شعور شديد بالخوف .

نموذج لتجارب دولار وميلر في دراسة الشخصية :

كان لدراسات دولار وميلر التجريبية على الحيوانات هدفين :

١- اثبات ان الخوف والقلق وغيرهما من مظاهر العصاب متعلمه، وانها تكبت في اللاشعور فقط اذا اكتسبت قبل تعلم اللغة.

٢- اضفاء الصفة التجريبية على بعض المفاهيم التحليلية كالصراع والتعميم والازاحة او مفاهيم سلوكية كالانطفاء في موقف مماثل لعملية العلاج النفسي واستخدما لذلك جهاز موراي وبيركون Murry&Barkun ويتكون من صندوق خشبي مقسم الى ثلاث اجزاء طولية تم طلاءها من الداخل باللون الاسود والرمادي والابيض. وفي احد اطراف الصندوق يوجد ممر يوصل الاجزاء الثلاثة معاً بحيث يتيح للحيوان المستخدم حرية التنقل بينما يوجد في الطرف الاخر فتحات مواجهة لكل جزء تسمح للحيوان بالخروج منها (شكل ١٧أ) وحيث انهما لا يعتقدان بوجود خطأ في استخدام الحيوانات في التجارب بغرض دراسة السلوك فقد استخدما الفئران في البداية احدثا صراع الاقدام – الاحجام في الفأر عن طريق تغذيته في البداية في جزء معين من الصندوق سمي (بالصندوق الهدف) goal box، وتم احداث الصدمة الكهربائية عليه في نفس الصندوق، حيث تكون لدى الفأر ميل اقدامي قوي نحو الصندوق لانه يأكل فيه ثم ميل احجامي قوي نحو نفس الصندوق لانه يتلقى منه الصدمة الكهربائية حيث تلقت بعض الحيوانات تدريبها في الجزء الابيض، والبعض الاخر في الجزء الرمادي. وبعد انتهاء التدريب توقف احداث الصدمات الكهربائية.

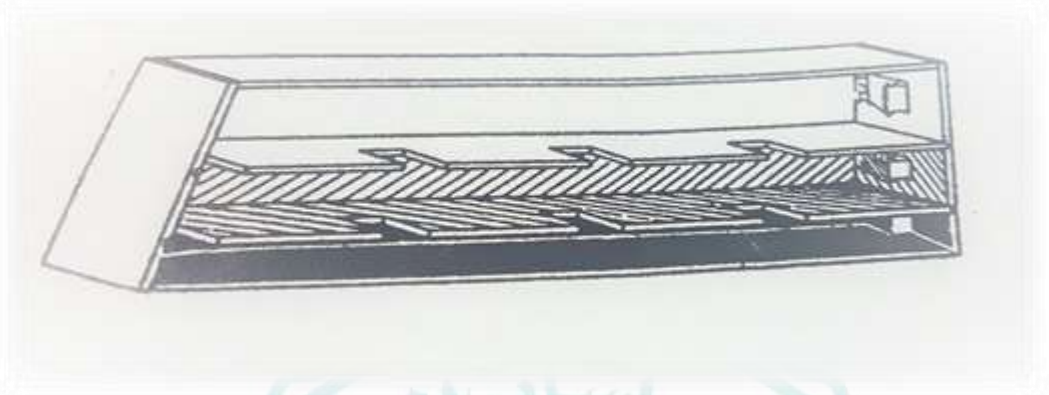

وطبقاً لقواعد نظرية الصراع فانه من المتوقع ان يكون لدى الحيوان الذي دُرب على صراع اقدام – احجام : اقدام نحو الهدف الى ان يصل الى النقطة التي يصبح الاحجام عندها اقوى من الاقدام وفي هذه الحالة ستحدث عملية ازاحة او ابدال الى هدف مماثل ولكنه اقل تهديداً. وفي هذه الحالة يتوقع ان يهرب الحيوان من الممر الذي تلقى فيه الصدمة (ولتفرض انه الممر الابيض) ويدخل ممراً اخر لونه مخالف للممر الذي تلقى فيه الصدمة، فقد يذهب الى الممر الرمادي او الاسود، ومع توقف الصدمات فان الخوف من الممر الابيض سينطفئ، وهو ما يثبت ان الخوف والقلق عمليات مكتسبة. وسيتم عرض نماذج اخرى لتجاربها في حينه. (عبد الرحمن،١٩٩٠، ص ٥٩١)

نمو الشخصية :

ان التحول من الرضيع البسيط الى الرشد المعقد يعد امراً ذا اهمية ضئيلة لدى بعض اصحاب النظريات، ولكن دولار وميلر قد احكما صياغة هذه العملية على الوجه الاكمل. وسوف نعرض لمعالجتهما لهذه المشكلة بادئين بنظرة مختصرة للتجهيزات الفطرية لدى الرضيع ثم نتبع ذلك بمناقشة تفصيلية لعملية التعلم وتطبيقها على اكتساب البواعث وعلى التفكير. وبالاضافة الى ذلك فسوف نعرض باختصار لاهمية السياق الاجتماعي للسلوك وللمراحل الارتقائية، كما سوف نعرض في النهاية لتطبيق تلك المفهومات على ظاهرتي الكبت والصراع.

تطبيقات نظرية دولار وميلر

كيف نتعلم الخوف: تتفق وجهة نظرية دولار وميلر مع فرويد في ان العصاب يرجع عادة الى صراعات لا شعورية قوية تنشأ اثناء فترة الطفولة (دون ان يركزا على اويهتما بالطاقة النفسية او المكونات المختلفة للنفس البشرية) وهم ان يرون ان مثل هذه الصراعات العصابية علمت (لقنت) taught بواسطة الوالدين وتعلمها learned الطفل. فالطفل الصغير سريع التأثير لمثل هذا التعلم المرضي بسبب عجزه من ناحية ولكونه واقع تحت رحمة والديه من ناحية اخرى، ومثل هؤلاء الاباء يتصرفون احياناً او كثيراً بطرق مؤذية ولانه لايستطيع بعد ان يفهم العالم، وكل ما يسعى اليه هو اشباع حاجاته.. ويرى دولار وميل ران مرحلة الطفولة فترة عصاب مؤقتة، وافتقار الى العمليات العقلية العليا، وهكذا فان مهمة الوالدين هي التطبيع الاجتماعي لا طفالهما. واعدادهم لكي يأخذوا مكانهم المناسب في مجتمعهم " الطفولة المثالية او اسطورة الطفل السعيد" حالت دون النقاش الصريح والنزيه لتوترات الحياة الاسرية والبؤس والصراع المتكرر الذي يعيشه الاطفال. وبفضل اعمال فرويد نبدو الان مستعدين لان نقول الحقيقة ونعترف بان النمو في اطار الاسرة امر عسير وشاق (١٩٥٠) .

يؤكد دولار وميلر على اربعة مواقف طفولية مجهدة لكل من الوالدين والطفل، ومن ثم يحتمل ا نتحادث صراعات انفعالية حادة في المراحل التالية من العمر وهي : التغذية وتدريبات الاخراج والتدريب الجنسي واظهار الطفل للغضب .

اولاً : التغذية : يتفق دولار وميلر مع ادلر في اعتقاده ان الام التي تمثل المرحلة الاولى والمبكرة في علاقات الطفل الانسانية تلعب دوراً حيوياً في عملية التنشئة الاجتماعية، وعلى سبيل المثال لنفرض ان رضيعاً لا يُطعم باستمرار بسبب اهمال امه حتى يصيح او يبكي بصوت عال من شدة الجوع، لمثل هذا الطفل تعد عملية الرضاعة تدعيم لثورته الهائلة خاصة انها تحدث قبل الرضاعة مباشرة، وسوف يعمم خوفه من الجوع المؤلم والحاد على ما سيق الجوع العادي، والنتيجة السيئة لهذا كله ان يتعلم الطفل المبالغة في ردود افعاله ليزيد من الدافع، كما يخاف من ان يبقى وحيداً (وهو تلميح مرتبط بوخز الجوع المؤلم القوي)، ويصبح فاتر المشاعر وغير مبالي (لأن وسيلته الوحيدة للتأثيرفي البيئة وهي البكاء ضعيفة التأثير)، وعلى العكس من ذلك فان التغذية في اوقات منتظمة، والرعاية

الحانية التي تمنحها ام محبة لطفلها تساعد على ان تحول دون التعلم الباثولوجي وان تجعل ظهورها اللاحق بمثابة تدعيم ثانوي ايجابي.

ثانياً: تدريبات الاخراج : من الممكن ان تصبح عملية التدريب على الاخراج احد مصادر الخوف والصراع لأن الارتباط القوي بين مثير الامعاء واستجابة الاخراج يجب ان ي تضعف وتستبدل بسلسلة معقدة من الافعال التمهيدية التي يصعب على الطفل تعلمها في سن مبكرة (مثل الذهاب للحمام، وفك الازرار وخلع الملابس) وبالتالي يؤتبط بعض القلق بالعقاب في حالة عجز الطفل عن التحكم، ولكن اذا تصرف الاباء بغضب زائد واشمئزاز وهو امر غير مرغوب في مثل هذه الامور، فان المخاوف القوية تصبح مرتبطة بعملية الاخراج وربما بالوالدين انفسهما.

ثالثاً: التدريبات الجنسية : على النقيض من فرويد يرى دولار وميل ران الجوع او العطش الحاد او حتى الطموح ربما يصبح دافع اكثر قوة من الرغبة الجنسية وعلى اية حال فهما يوافقان على ان الجنس يصبح مربك ومؤلم لانه من السهل كفه او منعه (بواسطة الخوف مثلاً) اكثر من اي من الدوافع الاولية، فنحن نستطيع ان نحيا بدون الجنس، لكن لا نستطيع ان نحيا بدون الطعام والماء. كما يقبل دولار وميلر رأي فرويد حول وجود النشاط الجنسي في مرحلة الطفولة فيشيران الى ان " انتصاب القضيب يمكن ان يلاحظ في الاطفال الذكور " ويتفقان مع فرويد في وجود عقدة اوديب، ولذلك فانهما يحذران الاب الذي يعامل ابنه على انه ند او منافس، والام التي تبحث عن الاشباع العاطفي عند ابنها لتعوض صعاب او إحباطات جنسية مع زوجها، مما يثير استجابة الخوف من قبل الطفل على اعضاءه التناسلية (قلق الخصاء) " فقد يفترض الطفل ان البنت كان لديها اعضاء تناسلية بارزة ولكنها بُترت، ربما كعقاب على خطأ ما، ولا شك ان مثل هذا الاستنتاج يحدث عادة " (١٩٥٠). وربما يعمم هذا الخوف على العلاقات الجنسية في مرحلة البلوغ، ويبقى يعاني العجز او الضعف الجنسي، ويظل غير قادر على تكوين علاقات جنسية غيرية في مرحلة الرشد، او اذا تعلم ان يستجيب لامه او لاخته بميول تشبه القلق الجنسي فقد يصبح غير قادر على اظهار اي عاطفة لزوجته اثناء المباشرة الجنسية، كما ان المخاوف الجنسية عادة ما تنتج بسبب غضب الوالدان واشمئزازهما من لعب الطفل باعضاءه التناسلية، بالاضافة الى انه اذا كان الدور الذكري او الانثوي قد

غُرس وطُبع في الذهن بواسطة الوالدين فسوف تنتج صراعات حادة اذا كانا يؤيدان طفلاً من الجنس الاخر .

اذا كان الوالدان يرغبان بشدة في طفل ذكر فربما يفشلان في فرض التطبيع الجنسي الانثوي على الفتاة التي جاءت بالفعل، او العكس، فالأم التي تفضل ان يبقى ابنها طفلاً صغيراً baby ربما تجعله مخنث في الوقت الذي يجب فيه التأكيد على صفاته الذكرية وهو ما سوف يربك الطفل حول ما هية الأهداف الجنسية المتوقعة منه اجتماعياً (١٩٥٠).

رابعاً : المصدر الاخير والشائع للخوف والصراع يرتبط باستجابات الطفل الغاضبة والعدوانية التي تنتج بسبب الاحباطات الحتمية التي يواجهها. وهذا السلوك يعتبره دولار وميلر السبب الاكثر تكراراً للعقاب الحاد، والقلق الناتج ربما يعمم generalize الى السلوكيات السوية لتوكيد الذات، ويصبح الفرد كاظم لغيظه وحليم لانه غير قادر على التعبير عن غضبه الا بالطرق غير المباشرة كالخداع او الوقيعة بمصدر الغضب. " ربما تصبح عملية نزع الفرد من غضبه او تخليصه من عملية خطيرة لان الشخصية الايجابية تحتاج الى بعض القدرة على اظهار الغضب " (١٩٥٠)

وهكذا يرى دولار وميلر ان الخوف والصراعات تتعلم وتكتسب في المهد والطفولة المبكرة وبشكل تلقائي تصبح لا شعورية ويكون من الصعب جداً حلها. بسبب عدم قدرة الطفل على استخدام اللغة للتعبير عن مخاوفه وصراعاته " الصراعات المبكرة تكون غير متمايزة وبالتالي تكون لا شعورية، فما لايستطيع الفرد ان يتلفظ به الان لا يمكن ان يحكى جيداً عنه فيما بعد" (دولار وميلر ، ١٩٥٠، ص. ص ٤٥ -٦٠).

اثار الخوف :

يترتب على الخوف المكتسب بسبب احداث الطفولة الاربعة المذكورة سابقاً ثلاثة اثار بعد ذلك في مقتبل العمر وهي:

اولاً – الصراعات اللاشعورية والدوافع غير المختزلة :

يتشابه دولار وميلر مع كارن هورني في انهما وضعا حداً فاصلاً بين الصراعات الشعورية واللاشعورية، وكلاهما ينشأ من دافعين او اكثر يفرضان بالاكراه استجابات متنافرة ولكن الدافع الاول منها (الشعوري) يشبع جانب حيوي في الحياة وليس له اي صفه مرضية، والاخر (اللاشعوري) يلعب دوراً اولياً في العصاب، ويعد مفهوم الصراع من المفاهيم الفرويديه التي درسها ليفين (١٩٣٥) واستعارها دولار وميلر وقاما بدراستها تجريبياً، حيث تحدث فرويد عن الصراع المستمر بين رغبات اللبيدو ومتطلبات الانا الاعلى حيث يكون الفرد متلهف بشئ ما، وخائف منه في نفس الوقت، وهو ما اطلق عليه دولار وميلر بعد ذلك بصراع اقدام احجام. وهو احد اربعة صراعات تمت دراستها وهي :

١- صراع اقدام – اقدام : هذا الصراع يكون بين هدفين موجوبين او بديلين موغوبين لهما نفس الجاذبية وفي نفس الوقت ويمكن توضيحها بالشكل التالي :

الهدف الاول	الشخص	الهدف الثاني
(+) ⟵	O	⟶ (+)

بعض هذه الصراعات تكون سهلة الحل وغير مربكة مثل الرغبة في مشاهدة فيلم ومباراة على قناتي التلفيزيون، او عندما يكون الفرد جائع ولديه رغبة للنوم، وتمتلئ حياتنا بالكثير من هذه الصراعات ونلجأ الى حلها بسرعة فقد نقلب قناتي التلفزيون لتتابع الفيلم والمباراة معاً او نأكل ثم نذهب للنوم. ولكن هناك بعض من هذه الصراعات التي ترتبط بامور حياتية هامه مثل اختيار تخصصين دراسين كلاهما مرغوب، او الاختيار بين وظيفة في مكان بعيد بمرتب مرتفع واخرى في مكان قريب بمرتب اقل من الاخرى، او الاختيار بين فتاتين للزواج لكلاهما نفس الصفات تقريباً.

٢- صراع احجام – احجام : هذا الصراع يكون بين هدفين سالبين او بين خيارين احلاهما مر (بين نارين). كصراع الطفل بين ان يأكل طعاماً لا يحبه او ان يحتمل التوبيخ، وصراع طالب الجامعة بين المذاكرة والرسوب في الامتحان، وصراع الموظف بين الذهاب لعمل لا يحتمله وفقد الدخل الذي يحصل عليه من هذا العمل، فهو مدان اذا فعل ومدان اذا لم يفعل، وكالمستغيث من الرمضاء بالنار .

الهدف الاول	الشخص	الهدف الثاني
(-) ⟵	O	⟶ (-)

ويأخذ سلوك الكائن العضوي لمواجهة صراع احجام – احجام امرين هما :

أ- التردد او الحيرة : اذا كان لكلا الهدفين نفس الجاذبية او تفضيل احدهما على الاخر لمجرد الخروج من حالة الحيرة هذه وليس لانه الاهم، وكأنه يطبق المبدأ القائل " وقوع البلا ولا انتظاره " .

ب- الهروب : اي ترك موقف الصراع دون حل اما على شكل هروب سلوكي مثل تأجيل الامتحان او بعض المقررات، او هروب فكري مثل الافراط في احلام اليقظة، او الاستغراق العقلي الكامل في افكار اخرى. او الوقوع فريسة لمرض عصابي مثل الهستريا التحولية (كالعمى الهستيري او الشلل الهستيري) ولا يترتب على ذلك الوقوع في براثن المرض العقلي كالفصام بما يتضمنه من هروب من الواقع.

٣- صراع اقدام – احجام : حيث يكون الشخص هنا منجذب الى ونافر من هدف واحد كالشاب الذي يرغب في خطبة فتاة لجمالها وينفر منها لسوء اخلاقها، كما ان العمل قد يكون جذاب بسبب ما يدره من عائد مالي، وفي نفس الوقت غير جذاب لانه يحول دون ممارسة الفرد لاشياء ممتعة. وقد ترغب فتاة في الزواج لانه يوفر لها فرصة لتحقيق الامان ولكنها قلقة من عجزها على تحمل تبعاته ومسؤلياته ويمكن توضيح ذلك .

فاذا كانت درجة الجاذبية [illegible] من درجة النفور منه كانت النتيجة السعي نحو الهدف، اما اذا كانت درجة النفور اقوى من درجة الجاذبية ستكون النتيجة تجنب الهدف والسعي الى هدف بديل او الاضطراب النفسي. اما اذا كانت درجة الجاذبية مساوية لدرجة النفور تحدث الحيرة، وقد يلعب التدعيم الخارجي هنا دوراً قي ترجيح كفة احد الخيارين في هذه الحالة

٤- صراع اقدام احجام مزدوج Double approach- avoidance conflict

حيث يكون لدى الفرد مشاعر متكافئة نحو هدفين في وقت واحد (وليس هدف واحد كما في النوع السابق) ويمكن توضيحها بالرسم الاتي :

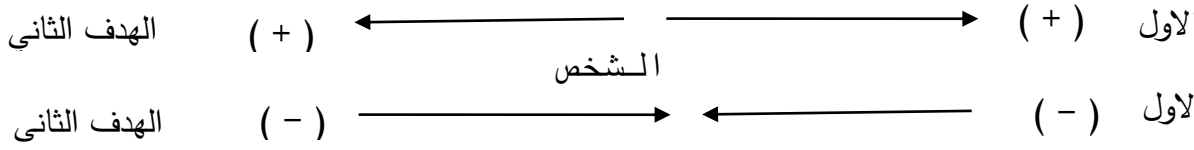

واوضح صور هذا الصراع هو الصراع الاوديبي في نظرية فرويد وخاصة لدى البنت والهدفين هنا هما الوالدين حيث تكون البنت منجذبة نحو الام لانها مصدر اشباع حاجاتها البيولوجية ونافرة منها بسبب اعتقادها الخاطئ عن مسؤلياتها ازاء بتر القضيب، كما انها منجذبة لابوها ونافرة منه في الوقت ذاته خوفاً من امها!!

واذا بقيت هذه الصراعات شعورية في هذه الحالة يستطيع الفرد تطبيق العمليات العقلية العليا على المشكلة ومن ثم يستطيع تحقيق بعض الحلول المنطقية والفعالة. وعلى العكس فان الصراعات اللاشعورية تحدث بسبب الخوف الشديد (او الاقل تكراراً بواسطة دوافع اخرى متعلمة كالشعور بالذنب) ويكون من الصعب التخلص منها بدون مساعدة العلاج النفسي : -

" الصراعات في حد ذاتها ليست بدعة او شيء جديد او غير مألوف على الانسان، والصراعات الانفعالية او العاطفية هي الاكثر تلازماً مع حياتنا في كل سن او مستوى اجتماعي، ولكن عندما تكون الصراعات قوية ولا شعورية فان الفرد سيبقى يفعل نفس الاخطاء القديمة ويعاقب بنفس الطريقة القديمة ايضاً.

ولتوضيح ذلك نفرض ان الخوف اصبح استجابة متعلمة للمثير الجنسي وهو ما حدث بالفعل لامرأة جذابة وذكية من مريضات دولار وميلر رمزاً لها بالسيدة (أ) كانت تعاني من صدمة طفولية متمثلة في التعرض لاغراء من قبل اخيها الاصغر، وام تصف لها الجنس بانه شيء قذر وخطأ جسيم لا يغُتفر، وحيث ان الدافع الجنسي دافع فطري ولا مفر منه، فإن النتيجة السيئة في هذه الحالة تتمثل في وجود صراع اقدام – احجام لاشعوري، فلديها دافع قوي للاستمتاع الجنسي (اقدام) وحاجة قوية لاختزال المخاوف المرتبطه به عن طريق الهروب من المواقف المثيرة للجنس (احجام)، وفي رأي دولار وميلر ان شدة التجنب تميل للزيادة بشكل اسرع من الاقدام (شكل ١٧–ب) ومن ثم يصبح

الجنس جذاب من بعيد او على بعد فقط، وسوف تتجه المريضة لاشباعه على هذا الاساس (كأن تقوم بالذهاب للحفلات الانفرادية)، ولكن الخوف يسيطر عندما تقترب من الهدف ولذلك فان الفرد سوف يختزل هذا الدافع بالتحرك بعيداً (كالخجل المبالغ فيه من اعضاء الجنس الاخر او ترك الحفلة مبكراً). ويتم التضحية بعدم اشباع الدافع الجنسي في سبيل اختزال دافع الخوف، ويبقى الدافع الجنسي غير مُشبع وغير مختزل وتبقى الشكوى قائمة مما اسمياه بالبؤس العصابي neurotic misery.

وربما يعيق الخوف اختزال بعض الدوافع الهامة الاخرى التي يصبح مرتبطاً بها مثل الغضب، ولكن المشكلة ان المريض لا يستطيع ان يفهم ويهاجم المشكلة بفاعلية لان العمليات العقلية العليا لم تساعده على تحقيق ذلك. اما بعدم القدرة على تصنيف او وصف هذه المخاوف والصراعات على انها مكتسبة في سنوات ما قبل تعلم اللغة في مرحلة الطفولة ومن ثم اصبحت مكبوتة في اللاشعور بصورة تلقائية. او باستخدام حيل الدفاع النفسي كالكبت وغيره.

ثانياً : الازاحة والكبت والحيل الدفاعية الاخرى :

تعد الازاحة احد المفاهيم الفرويدية التي القى الضوء عليها من قبل دولار وميلر حيث يرى فرويد ان الدافع المُحبط لا يختفي ولكنه يعاود الظهور في شكل مختلف وبتعبير اخر اذا لم نستطيع اشباع حاجاتنا بشكل مباشر فسنحاول اشباعها بشكل غير مباشر. وكما اوضح فرويد في الفصل الثاني فانه يتم ازاحة الدافع الجنسي ليشبع بطرق مقبولة اجتماعياً مثل العمل المتواصل او الابتكارية.

ولكي يدرس دولار وميلر هذه الظاهرة تجريبياً وضعا فأرين في جهاز واخذا في احداث صدمات كهربية عليهما حتى بدأ في الشجار معاً، وعند ذلك توقف احداث الصدمات، اي ان السلوك العدواني تم تعزيزه بايقاف الصدمات، واستمرا في التدريب على هذا النسق الى ان اصبح الفأرين يبدأن العدوان بمجرد تلقي اول صدمة كهربية، وفي هذه الحالة يتم وضع دمية في الجهاز، ويتم احداث الصدمة على الفأرين ثانية حيث تشاجرا معاً وتجاهلا الدمية، ولكن عندما تم وضع فأر واحد في الجهاز

واحداث الصدمة عليه بدأ في مهاجمة الدمية، لقد ازاح عدوانه الى شيء بديل وهو ما يعرف بالعدوان المزاح displaced aggression ويحدد ميلر الامور الاتية على انها ترتبط بعملية الازاحة :

١- عندما يكون مستحيل للكائن العضوي ان يستجيب لمثير مرغوب فانه سوف يستجيب للمثيرات الاكثر شبهاً او تماثلاً مع المثير المرغوب، فإذا حُرمت امرأة من الزواج بالرجل الذي احبته بسبب موته فانها سوف تميل الى الزواج يوما ما من رجل يشبهه تماماً .

٢- اذا حيل دون الاستجابة للمثير الاصلي بسبب الصراع، فان الازاحة سوف تحدث الى مثيرات بديلة، وعلى سبيل المثال اذا هجرت فتاة خطيبها بسبب نزعته لانتقادها، فانها ستحرص على ان يكون خطيبها المقبل مماثل للسابق في جوانب عديدة (الجوانب الحسنة) ولكن لا يوجد فيه الميل للنقد.

٣- اذا كانت هناك ميول احجامية قوية عن المثير الاصلي فان الازاحة ستحدث الى مثيرات مختلفة تماماً. فاذا وجدت فتاة ان خطيبها السابق كان سلبياً وبارد عاطفياً فانها سوف تحرص على ان تقترن بشاب مختلف كلية عنه.

اذا حدثت الازاحة بسبب الصراع، فان قوة الاستجابات المتصارعة هو الذي يحدد موضوع الازاحة. ويوضح الشكل التالي طبيعة الازاحة عند حدوث استجابة ضعيفة او قوية الصراع .

ويتضح من هذا الشكل انه اذا كان هناك رغبة في الاعتداء على هدف ما مع خوف ضعيف من العقاب، فسيكون هناك ميل لازاحة العدوان على هدف مماثل للهدف الاصلي، اما اذا كان هناك رغبة في العدوان على هدف ما وخوف قوي من العقاب فانه من المحتمل ان يتم ازاحة العدوان الى هدف مخالف تماماً للهدف الاصلي. او بمعنى اخر فان زيادة مخاوف الفرد سوف تقلل من ميله لازاحة الاستجابة على هدف مماثل. اما ضعف خوف الفرد يزيد ميله لازاحة الاستجابة الى هدف مماثل. فاذا كان الموظف لا يخاف من رئيسه في العمل الذي اصابه باحباط فانه سوف يعتدي مباشرة عليه، اما اذا كان الموظف لديه درجة متوسطة من الخوف من رئيسه فلن يعتدي عليه ولكن سوف يعتدي على شخص اقرب ما يكون له، ولكن اذا كان لدى الموظف خوف شديد من رئيسه فانه سوف يعتدي

على اشياء او اشخاص تختلف كلية عن رئيسه في العمل مثل العدوان على السيارات وهو في طريقه للعودة الى المنزل او العدوان على زوجته او اولاده .

كما يمكن توقع قيام الطلاب ذوي المستوى التحصيلي المنخفض الذين يخافون من المدرسين والسلطة الادارية في المدرسة بالقيام بتخريب متعمد ضد اثاث مدرستهم ومبانيها. وهذا العدوان انما يرجع الى الاحباط بسبب درجاتهم المنخفضة وتم ازاحته من مصدر الاحباط (المدرسين والادارة) الى هدف بديل اقل تهديداً هو الاثاث والمباني المدرسية .

وهكذا قام دولار وميلر بوصف الازاحة بمفهوم سلوكي فهما يرونها بذلك نوع من التعميم يحدث بسبب مثيرات جزئية او الخوف من هذه المثيرات، كما يحدث عندما ينجذب الشخص الى شخص اخر يتشابه في خصائصه الجسمية مع حبيبه المفقود او مع احد والديه المخالف له في الجنس.

اما الكبت فهو ايضاً من حيل الدفاع النفسي التي تناولاها باهتمام، وهما يريان الحاجة لخفض دافع الخوف المتعلم تؤدي الى كبت كل من السلوكيات والافكار على حد سواء. وعلى سبيل المثال فان الخوف المرتبط بالسلوك المعاقب (مثل الاستمناء، او الغضب) يتم تعميمها على الافكار المرتبطة بهذا السلوك، كما ان تجنب مثل هذه الافكار يتم تعزيزه، وقد ميز دولار وميلر بين مفهومي القمع والكبت، فالقرار المتعمد والواع لوقف التفكير في الامور المثيرة للقلق وهو ما يعرف بالقمع suppression ربما يكون نافع ويتم تعزيزه كما انه يبقى تحت تحكم وسيطرة الفرد. وعلى سبيل المثال اذا حاول احد الطلاب خفض قلقه من الامتحان، واعتقد انه سوف يؤدي بشكل جيد في امتحان اليوم التالي واصبح مسرف في الثقة ربما يتوقف عن المذاكرة في الحال، ولذلك فان استرجاع الخوف من الفشل سيحل المشكلة بدون شك. ولكن الكبت repression الذي يُعد ايضا بمثابة استجابة لا شعورية لايقاف التفكير يتم تعزيزه من خلال خفض دافع الخوف يكون عادة ضار لانه لايمكن التحكم فيه من قبل الفرد لانه يتم لا شعورياً، كما انه يضعف او يحد من العمليات العقلية العليا والاكثر اهمية، ويمنع الفرد من استخدام التعبيرات اللفظية المناسبة. او التمييز والتفكير والتخطيط لحل القضايا العاطفية الهامة والمؤلمة. والنتيجة السيئة لتوقف التفكير الفعال هذا هو الوقوع فريسة لسلوك عصابي، ويعتمد نوع السلوك على طبيعة المجال الذي حدث فيه الكبت. ولا يستطيع المرضى هنا مجرد التقدير

الصحيح او حتى وصف مشاكلهم. ويعبرا عن ذلك بقولهما " لا يستطيع الشخص العصابي حل صراعاته حتى مع مرور الوقت، فتفكيره يتسم بالذكاء الواضح في بعض القضايا، ولكنه يكون غبي الى حد ما او احمق اذا ارتبط الامر بمصدر صراعاته العصابيه، ولكن هذه الحماقة لا تعد مسألة عامة بالنسبة له، وفي الواقع ان هناك منطقة غياء stupid areaفي عقل ذلك الشخص الذي يتمتع بمنتهى الذكاء في قضايا اخرى ".

العلاقة بين الاحباط والعدوان :

في عام ١٩٣٩ نشر دولار وميلر (وبعد ذلك كل من دوبDoob ، ماورر Mawrer، وسيرز Sears) اول كتاب لهما معاً بعنوان الاحباط والعدوان وفيه قاما بتحليل رأي فرويد القاضي بان الاحباط يقود الى العدوان. فعرفا الاحباط بانه تلك الحالة التي تحدث عندما يعاق اشباع الهدف " او هو الاثر النفسي المؤلم المترتب على عدم الوصول للهدف او تكرار الفشل. وعرفا العدوان بانه اي تصرف يترتب عليه ضرراً او اذى للذات او للاخرين او الوسط المحيط. وهما يفترضا ان عدم تحقيق الهدف يسبب الاحباط، وان الاحباط فعلاً بدوره يؤدي الى السلوك العدواني ازاء الاشخاص او الاشياء التي حالت دون تحقيق الهدف. ويحدد دولار وميلر ثلاث عوامل تحد كمية العدوان الناتجة من الاحباط.

١- شدة الدافع المرتبط بالاستجابة المحبطة: كلما زادت شدة الدافع الذي يرغب الفرد في اشباعه وتم اعاقة الاشباع كلما زادت شدة الاحباطات ومن ثم زيادة حده السلوك العدواني.

٢- وصل الاحباط الى الاكتمال : فالاشباع الجزئي للدافع يؤدي مستوى منخفض من الاحباط وعدوانية اقل. اما وصول الاحباط الى حد النهاية فسيؤدي الى عدوان شديد .

٣- الاثار التراكمية للإحباطات الثانوية : حيث يؤدي تراكم الاحباطات الثانوية او الضعيفة الى درجة كبيرة من الاحباط ومن ثم سلوك عدواني عنيف. فانغلاق اشارات المرور امام الفرد الجائع المتوجه بسيارته الى مطعم ما لتناول الغذاء ثم يجد المطعم مغلقاً تجعل احساسه بالاحباط اشد مما لو وجد المطعم مغلقاً فقط دون ان تعوقه اشارات المرور عن الوصول اليه .

كما يرى ميلر ان العدوان يعد احدى نتائج عملية الاحباط، ومن المحتمل ان تظهر نتائج اخرى مثل الانسجاب، فتور المشاعر apathy، النكوص او التثبيت على انماط سلوكية معينة. (عبد الرحمن،١٩٩٠، ص ٦١٠).

بناء الشخصية :

لقد ابدى كل من دولار وميلر قدراً كبيراً من الاهتمام بالتعلم وبعملية النمو ويتسق ذلك مع ما ابدياه من قدر اقل بكثير من اهتمام بالعناصر البنائية او غير المتغيرة نسبياً في الشخصية. واذا ما سلمنا بعدم تركيزهما على تلك النواحي البنائية، فما هو المفهوم الذي استخدماه للتعبير عن الخصائص المستمرة والدائمة للشخص. ان العادة – وهي احدى المفهومات الرئيسة في نظرية م – س تقوم بهذا الدور.

العادة :

العادة هي وصلة او ارتباط بين مثير (دليل) واستجابة. وكما سنتبين، فان جوهر هذه النظرية يتعلق بتحديد الظروف التي تتشكل في ظلها تلك العادات وتنحل او تستبدل. وبالرغم من ذلك، فانه لا يوجد سوى وانتباه ضئيل او لا يوجه انتباه على الاطلاق الى تحديد فئات للعادات او قوائم الانواع الرئيسية من العادات التي امكن ملاحظتها. وبرغم ان الشخصية تتكون اساساً من العادات فان البنيان المعين لهذه العادات سيعتمد على تلك الوقائع الفريدة التي تعرض لها الفرد وذلك الى جانب ان هذا بناء مؤقت فقط. حيث ان عادات اليوم قد تتغير نتيجة لخبرة الغد. وقد اكتفى دولار وميلر بتحديد القواعد التي تحكم تكون العادة تاركين للأخصائي الاكلينكي الفرد او للباحث الفرد مهمة تحديد العادات التي تميز اي شخص معين.

وينبغي ان يكون واضحاً ان العادات ليست القطاع الدائم الوحيد من الشخصية حيث ان هناك دوافع اولية وثانوية او مشتقة كما ان هناك تدرجات (هيراركيات) للاستجابات. وكل هذه يمكن ان تعتبر جزءاً من بناء الشخصية الا انه من الافضل مناقشة هذه المفهومات في الاجزاء التالية (هول ولندزي، ب ت، ص ٥٥٣) .

ولكي نفهم اشتقاق البواعث الثانوية من الاولية يجب ان نفهم عملية التعلم. ويقودنا ذلك الى المشكلة العامة لارتقاء الشخصية وسوف يكون لدينا المزيد لقوله فيما بعد فيما يتعلق بالبواعث الثانوية او المتعلمة.

التجهيزات الفطرية :

لا يكون الفرد عند الميلاد وبعده بقليل مزوداً الا بقدر محدود فحسب من التجهيزات السلوكية، فهو يمتلك في البداية عدداً صغيراً من الافعال المنعكسة النوعية التي تعد في اغلبها استجابات منفصلة لمثير او لنوع من المثيرات الفائقة النوعية. ثم هو يلتك ثانياً عدداً من التنظيمات المتدرجة الفطرية للاستجابة التي تعد بمثابة نزعات لظهور استجابات معينة قبل استجابات اخرى معينة في مواقف استثارة خاصة، فمثلاً قد يكون من الامور المحددة فطرياً، انه حين يتعرض الطفل لمثيرات ذات خطورة معينة في مواقف استثارة خاصة، فمثلاً قد يكون من الامور المحددة فطرياً، انه حين يتعرض الطفل لمثيرات ذات خطورة معينة فانه يحاول الهروب اولاً من المثيرات قبل ان يصرخ. ويتضمن هذا الافتراض ان ما يسمى بالسلوك العشوائي ليس عشوائياً على الاطلاق بل انه يتحدد بتفصيلات استجابية تنتج اساساً في فترة مبكرة من ارتقاء الكائن، عن عوامل فطرية ولكنها تتأثر من خلال الارتقاء بخليط مركب من الخبرة، ومن تلك التنظيمات المتدرجة الفطرية. ويمتلك الفرد – ثالثاً – مجموعة من البواعث الاولية التي – كما سبق ان رأينا – تكون في الحالة العادية عبارة عن مثيرات داخلية بالغة القوة البواعث الفرد الى العمل ولكنها عموماً لا ترشد هذا العمل او توجهه، والثبات وترتبط عادة بعمليات فسيولوجية معروفة. وتدفع تلك بحيث انه فيما قبل التعلم لا يكون ثمة موجة للسلوك سوى الافعال المنعكسة النوعية والتنظيمات المتدرجة للاستجابة.

العمليات العقلية العليا :

ولكي يحدث اي من الاستدلال او التخطيط ينبغي على الفرد اولاً ان يكون قادراً على كف او تأجيل الاستجابة الوظيفية المباشرة حيال المثير الباعث والدليل. فهذا الكف هو الذي يتيح للاستجابات المصدرة للأدلة فرصة ان تعمل، ولذا ينبغي لاستجابة " عدم الاستجابة " هذه ان تتعلم

شأنها شأن اي استجابة جديدة. ومن الضروري ايضاً ان تتميز الاستجابات المصدرة للادلة بالكفاءة والواقعية واخيراً ان تؤدي الى الافعال الوظيفية المناسبة او الظاهرى.

وتتأثر القدرة على استخدام اللغة وغيرها من الاستجابات المصدرة للأدلة بالسياق الاجتماعي الذي ينشأ فيه الفرد. ووفقاً لكلمات دولار وميلر:

((ان حلول المشكلات التي تحققت بجهد بالغ عبر قرون من المحاولة والخطأ وعن طريق ارقى مراتب الاستدلال الخلاق لقلة نادرة من العباقرة قد تم حفظها وتجميعها بوصفها جزءاً من الحضارة.. ويتبقى الناس قدراً هائلاً من التدريب الاجتماعي على تجميع الكلمات والجمل معاً بحيث تؤدي الى الحلول التكيفية للمشكلات)) (١٩٥٠، ص١١٦)

ان استنباط النظرية الفيثاغورية يعد عملاً نادراً وخلاقاً ولكن تعلمها بعد ذلك في اي وقت ومكان مناسبين لا يعد امراً بالغ الصعوبة بعد ان تكون قد عرفت بالفعل. وهكذا تقدم اللغة المفتاح الذي تنتقل به الحكمة من الماضي الى الحاضر .

ونظراً للأهمية العظمى للغة فانه من المناسب تماماً وجوب تدريب الطفل على التنبيه على الادلة اللفظية والاستجابة لها ثم اصدارها في النهاية ومن المحتمل ان استخدام الرموز اللفظية في الاتصال بالآخرين يسبق استخدامها في الافكار. ويدور قدر كبير من تفاعلات الطفل مع بيئته حول كيفية اصدار تلك الادلة في الظروف المناسبة، وبالمثل حول كيفية فهم ما يصدره الاخرون متلك الادلة .

واللغة – كما سبق ان اشرنا – نتاج اجتماعي واذا ما سلمنا بدلالة عملية اللغة فانه يبدو معقولاً ان يكون الوسط الاجتماعي الذي يتفاعل فيه الفرد على قدر من الاهمية. ولنعد الان الى تناول هذا العامل. (هول ولندزي، ب ت، ٥٦٥).

السياق الاجتماعي :

من المرجح تماماً بالنسبة لاي نظرية او منظر متأثر بالانتروبولوجيا الاجتماعية ان يبرز دور المحددات الاجتماعية الحضارية للسلوك، ولا تستثنى نظريتنا الراهنة من هذه القاعدة. فدولار ومسللر

يؤكدان باستمرار حقيقة انه لا يمكن فهم السلوك الانساني الا بالإدراك الكامل للسياق الحضاري الذي حدث فيه السلوك. وتمدنا سيكلوجية التعلم بفهم لأسس التعلم principles of learning ولكن عالم الانتروبولوجيا الاجتماعية او من يشابهه يمدنا بشروط التعلم وكل من هذين التخصصين يبلغ من الاهمية بالنسبة للفهم الكامل للنمو الانساني ما يبلغه الاخر.

ان احداً من علماء النفس لا يجرؤ على التنبؤ بسلوك فأر دون ان يعرف في اي من ذراعي متاهة T وضع الطعام وفي ايها تقع الصدمة الكهربية. والتنبؤ بسلوك الانسان ليس اسهل من ذلك دون معرفة ظروف متاهته، اي بنيان بيئته الاجتماعية. والحضارة – كما يفهمها علماء الاجتماع – هي توضيح لتصميم المتاهة البشرية، ولنوع المكافأة الذي تتضمنه، واي الاستجابات يجب ان تكافأ. وهي بهذا المعنى وصف للتعلم. ويكون قبول هذه المناقشة ايسر عندما تقارن مجتمعات شديدة الاختلاف بعضها بالبعض. ولكن حتى داخل نفس المجتمع، قد تبدو المتاهات التي يقطعها فردان متطابقة ولكنها تكون بالفعل مختلفة تماماً. ولا يمكن لاي تحليل لشخصية فردين ان يكون دقيقاً اذا لم تؤخذ في الاعتبار تلك الفروق الحضارية، اي الفروق في انماط الاستجابات التي كوفئت (دولار وميلر ، ١٩٤١، ص ٥– ٦).

وكما تشير تلك الفقرة، فان صاحب نظرية التعلم يثري بيانات عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية بإمداده بالأسس التي تساعد على التفسير المنظم لأهمية الوقائع الحضارية، على حين يمد عالم الانثروبولوجيا صاحب نظرية التعلم بما يحتاج اليه من معلومات لتزويد اسسه بالخبرة الفعلية للبشر. وبشكل ما فان وجهة النظر هذه تفترض ان التعريفات الاجرائية للمتغيرات النفسية تصبح مستحيلة دون حكمة وبيانات عالم الانثروبولوجيا.

وهكذا فان موقف دولار وميلر يسلم بنوع من العمومية عبر الحضارية لاسس التعلم (او لبعضها على الاقل) ولكنه في نفس الوقت يقبل – بل وحتى يؤكد – ان الصيغة الدقيقة للسلوك الذي يبديه فرد معين سوف تتأثر تأثراً هائلاً بالمجتمع الذي هو عضو فيه .

العمليات اللاشعورية :

الى التفكير فحسب بل انه يستطيع ايضاً ان يميز بين الاثنين. ويعد ذلك بالنسبة للشخص الجيد التوافق عملية بالغة الاهمية والكفاءة، فمثل ذلك الشخص يعرف ان افكاراً معينة يجب عدم التعبير عنها مطلقاً في مواقف معينة ولو انه سوق يشعر بحرية نسبية في معالجة تلك الافكار بينه وبين نفسه.

ولقد حاول حديثاً اثنان من طلبة ميلر (موراي وبيركن Murry and Barkun، ١٩٥٥) الجمع بين نظريات الازاحة والصراع واختبرا نتائج معينة لهذا النموذج الاكثر عمومية. ويرى الباحثان ان محاولة تطبيق نظرية الصراع على السلوك الانساني المركب تعاني من عجز النظرية عن تفسير ظاهرة الازاحة. وهكذا فقد وجد موراي (١٩٥٤) انه من الضروري استخدام كلتا النظريتين: الازاحة والصراع من اجل تفسير النتائج التي حصل عليها حين سجل عدد عبارات الكراهية التي اوردها احد المرضى متعلقة بالاب والعم والاخرين (الذين اقل اهمية) خلال ١٥ جلسة متتالية من جلسات العلاج. وكنتيجة لهذه الملاحظة اقام موراي وبيركن نموذجاً ثلاثي الابعاد يجمع بين خصائص نموذجي م – س السابق وضعهما (الازاحة والصراع) . وبفضل هذا النموذج تمكن موراي وبيركن من التنبؤ تنبؤاً صحيحاً بسلوك الفئران التي دربت اولاً على الجري عبر ممر مع تلقي مكافأة من الطعام، ثم تعرضت لصدمة كهربية في اثناء تناولها الطعام حتى لم تعد تقترب من الطعام بعد ذلك. واخيراً تعرضت لممرات اخرى لها اوجه مختلفة من التشابه مع الممر الاصلي. وعموماً فقد ازداد اقتراب الفئران من الطعام في الممرات البديلة وكانت تفاصيل اقترابها تتفق عموماً مع التنبؤات المسبقة التي قدمها النموذج. ولقد طبق المؤلفان النظرية ايضاً في عرض تصويري لبروتوكول جلسة علاجية.

وتؤكد الدراسات التجريبية التي سبق شرحها والتعليلات النظرية التي صحبتها بوضوح تام كيف ان تماسك نظريات وفحوص هؤلاء المنظرين كان اقوى بكثير منه لدى اغلب الباحثين في مجال الشخصية. ولقد رأينا بوضوح ايضاً، تفصيل الدراسات النموذجية التي تتضمن الحيوانات كمادة للفحص، ولكن الى جانب دراسات مناسبة تجري على الانسان وتساعد على عبور الهوة بينهما. ومن الواضح ان تلك الفحوص لم تسهم فحسب في فهم الازاحة او تعميم المثير بل انها ادت ايضاً الى

عدد كبير من التأكيدات التي يمكن اختبارها والتي حين تتخذ الخطوات الامبيريقية المناسبة قد تؤدي الى تدعيم فعالية هذه النظرية الى الحد منها.

الصراع :

لا يوجد انسان تبلغ تصرفاته من الفعالية الى حد ان تصبح جميع نزعاته متفقة ومتكاملة تماماً. وعلى ذلك فان على جميع اصحاب نظريات الشخصية ان يتناولوا مباشرة او بشكل غير مباشر المشكلات التي يواجهها الكائن من خلال تصارع نزعاته او دوافعه. ويتمثل السلوك الصراعي لدى دولار وميلر في ضوء خمسة افتراضات رئيسية هي امتدادات للمبادئ التي سبق لنا مناقشتها.

فهما يريان اولا ان النزعة الى الاقتراب نحو الهدف تصبح اكثر قوة كلما كان الفرد اكثر قرباً من الهدف ويطلق على ذلك مدرج الاقدام gradient of approach وهما يريان ثانياً – ان الميل الى تحاشي المثيرات السلبية يصبح اقوى كلما ازداد الفرد قرباً من المثير ويطلق على ذلك مدرج الاحجام gradient of avoidance . ومن الممكن اشتقاق تلك الافتراضات من اسس تعميم المثيرات ومدرج التعزيز التي سبق لنا مناقشتها. والافتراض الثالث هو ان مدرج الاحجام اكثر حدة في انحداره من مدرج الاقدام ويتضمن ذلك ان المعدل الذي تتزايد به نزعات الاحجام بالاقتراب من الهدف اكبر من المعدل الذي تتزايد به نزعات الاقدام في نفس الظروف. ويفترض – رابعاً – ان زيادة الباعث المرتبطة بالأقدام او الاحجام سوف ترفع من المستوى العام للمدرج. وهكذا سوف تظل هناك زيادة في قوة الاقدام او الاحجام بزيادة الاقتراب من الهدف، ولكن هذه النزعات سوف تصبح حينئذ اكثر قوة في كل مرحلة من مراحل الاقدام. ويفترض – خامساً – انه حينما توجد استجباتان متعارضتان فان التي هي اقوى تحدث. وتمكن تلك الافتراضات بالاضافة الى المفهومات التي سبق ان ناقشها دولار وميلر من التوصل الى تنبؤات فيما يتعلق بالطريقة التي سوف يستجيب بها الفرد لدى مواجهته بأنواع الصراع المختلفة .

البحوث المميزة وطرق البحث :

اورد دولار وميلر قدراً كبيراً من البحوث التي توضح او تختبر ما يستنتج من هذا الموقف النظري. وفي مجلدهما التعلم الاجتماعي والمحاكاة (١٩٤١) learning and limitation تلخيص لعدد من الدراسات على الانسان والحيوانات الدنيا وهي تمثل محاولات للتثبت من التنبؤات المنبعثة من نظريتهما. ولقد اجرى ميلر – كما سبق ان اشرنا – عدداً من الدراسات التجريبة المتعلقة بمختلف جوانب النظرية، ولقد ورد تلخيص لكثير منها في فصول كتابيه (ميلر، ١٩٤٤، ١٩٥١). وسوف نعرض هنا نموذجا من الحالات التي تتعلق بمفهوم الازاحة. ولا تبدي البحوث اهتماماً فحسب بعبور الهوة بين نظرية التحليل النفسي ومفهومات م – س بل انها تقدم ايضاً دليلاً تجريبياً على صلاحية عدد من المفهومات التي سبق ان ناقشناها.

حالة هانز : اعادة نظر

عارض السلوكيون النظرية الفرويدية في العصاب حيث فسروا العصاب من خلال مفاهيم التعلم، وتفسير فرويد للعصاب على النحو التالي :

دوافع غريزية تتطلب ارضاء فورياً وبما ان التعبير عن هذه الدوافع الغريزية يؤدي الى عقاب شديد فان ذلك يؤدي الى قلق الطفل حيال دوافعه ويحاول ان يكبتها او يقمعها حتى يخفض القلق فان الطفل قد يلجأ الى بعض الحيل النفسية مثل الاسقاط او التبرير او احلام اليقظة، وفي العصاب فان هذه الحيل تتحطم على صخرة الواقع ثم تعبر عن نفسها في صور عديدة مثل المخاوف الشاذة او الافكار القهرية او الافعال القهرية وتكون اساس العصاب في سنوات الطفولة الاولى، ومثال ذلك حالة الطفل هانز الصغير وهي حالة شهيرة، طفل في الخامسة من عمره ظهرت عنده حالة خوف مرضي تجاه الخيول حيث انتابه خوف من ان الحصان سوف يعضه بعد رؤيته لحصان يجر عربة حيث انزلق الحصان وسقط على الارض في شارع قريب من منزله وظهرت الفوبيا على شكل انه يرفض الخروج من المنزل وفسر فرويد هذه المخوفة الشاذة على اساس انها نتيجة لصراعات داخلية عند

الطفل وهذه الصراعات ناتجة عن رغبته في ان يحل محل ابيه ويمتلك امه ويتزوجها وهذه الرغبات خلقت لديه الخوف ان يقوم الاب باخصائه ويمثل الحصان الاب الذي يخشاه.

ان تفسير السلوكية لهذه الحالة يقوم على اساس انه لا توجد صراعات داخلية او اية امور من هذا الشكل، ان هانز شاهد حصاناً يقع من الشارع وهذا كان امراً كافياً لتخليق الخوف عند الطفل الصغير (عمره ٥ سنوات) ومن ثم فقد عمم هذا الخوف على بقية الاحصنة بحيث نتج عن ذلك سلوك تجنبي وهكذا فإن عملية اشراطية بسيطة يمكن ان تفسر المخوفة الشاذة عند هانز لان الحصان كان جزءاً من الخبرة المخيفة واصبح الحصان مثيراً اشراطياً للقلق وعمم الخوف على الاحصنة او المواقف الاخرى.

يمكننا من دراسة حالة هانز الصغير من اوضح الامثلة في تفسير استجابة القلق التي تحدث عند الانسان الذي يميز خبرة صدمية او بخطر محدق، ومن الاحداث التي تخلق قلقاً حادث قتل احد الاشخاص او خبرات ساحات المعارك الحربية او تحطم احدى الطائرات وهلاك من فيها.

دراسات تجريبية لـــدولار وميلر :

اجرى ميلر ودولار مجموعة كبيرة من الدراسات في مجال الاحباط والصراع، حيث يظهر الاحباط عندما يعجز الفرد عن اشباع حافز معين لان الاستجابة التي كان يمكن لها ارضاؤه اعترضت. اذا كان الاحباط ينشأ من وضع تظهر فيه استجابات متضاربة في نفس الوقت، فالوضع يوصف على انه صراع. اذن فالصراعات باختصار، تسمح ببعض من التضاد بين النزعات التي يجب ان نقدم عليها او نحجم عنها. دولار وميلر بميزان بين عدة انواع مختلفة من الصراع، ففي صراع الاقدام – اقدام الفرد في ان واحد يتم اغراؤه بهدفين لهما قيمة ايجابية لكن ذلك الشيء يتعذر تحقيقه. انا ارغب في مشاهدة فيلم معين هذا المساء، لكنني حصلت على كتاب جديد قد وصل لتوه وانا تواق لقراءته. في صراع الاحجام – احجام، الشخص يواجه خيارين غير مرغوبين ولكنه لا يستطيع الهروب في اي اتجاه بدون مقابلة واحدة من هذه الاهداف السلبية. طالب لا يذاكر استعداداً للامتحان ولكنه في نفس الوقت لا يريد الرسوب.

الاوضاع الانسانية متعددة جدا لدرجة ان التوقع يبقى مستحيلا في الوقت الراهن، لكن دولار وميلر اجروا تجارب على انواع مختلفة من الحيوانات سمحت ببعض درجات التوقع للسلوك. ففي التجربة التقليدية، وضعت الفئران في جهاز مربوط بمقود وتقوم مقاييس معينة بمقياس قوة السحب والجهد الذي يبدله الفأر في الاحجام أو الاقدام. في حالة واحدة الطعام كان هو الهدف، هنا المجرب لاحظ ان السحب على المقود اصبح اعظم كلما كان الحيوان اقرب للطعام. هذا جعل المجرب يضع نقاطاً تدل على انحدار الإقدام. في وضع آخر، الفئران وضعت في جهاز مشابه حيث تعلموا ان يتوقعوا صدمة كهربائية. في هذه التجربة، الفئران وضعت بقرب الهدف وسمح لها بالركض والهروب. فلاحظ المجرب انهم سحبوا الجهاز بقوة عندما كانوا قرب الهدف اكثر مما كانوا في المسافة الابعد منه (من النزعتين) النزعة للإحجام والنزعة للإقدام يصلان نقاط قمتهما بقرب الهدف.الفئران سحبت بقوة في الجهاز لتجنب الصدمة اكثر مما فعلت للحصول على الطعام. معرفة هذه الحقائق جعلت المجرب قادراً على التنبؤ بما سيفعله الفأر، اذا هو وضع في اية موقف داخل قفص تعلم منه انه سوف يتلقى طعاماً وصدمة كهربائية في منطقة الهدف! مثالياً، لو استطعنا قياس القوى المعقدة التي لو تسير السلوك الانساني ولو استطعنا تطوير صيغ متطورة تساعدنا في متابعة وتغطية كل المتغيرات التي تدخل في العملية لأصبح بمقدورنا التنبؤ بسلوك الانواع الدنيا والسلوكيات الانسانية المعقدة. نظرية دولار وميلر على كل، كانت ناجحة في التنبؤ بسلوك حيوانات المختبر البسيطة تحت شروط وظروف محكمة ولكنها لم تنجح في التنبؤ بالسلوك الانساني المعقد. (انجلر، ١٩٩٠، ص ٣٣٠)

الخاتمة:

١- نظريات التعلم والسلوك تكشف عن الشخصية تجريبياً بدراسة السلوك في اوضاع معملية وطرقهم الدقيقة تعكس وجهة نظر امبيريقية وتعديلاً متأنياً لمتغيرات معينة تحت ظروف محكمة.

٢- السلوكيون المبكرون تركوا بصمات واضحة على المذهب السلوكي مثل بافلوف الذي شرح عملية الاشراط الكلاسيكي او واطسون والذي ركزت نظريته على السلوك الظاهر او ثورندايك والذي صاغ قانون الاثر أو هول الذي وضع مفهوم تخفيض الحافز.

٣- دولار وميلر يصفان تركيب الشخصية فيما يتعلق بالعادات التي يمكن تعلمها وتلك التي لا يمكن تعلمها. كما يميزان بين الحوافز الاولية والثانوية والمعززات كقوى حافزية اولية للشخصية .

٤- السلوك البشري يمكن فهمه من خلال عملية التعلم والتي تنقسم الى اربعة اجزاء فكرية رئيسية هي :

أ- الحافز

ب- المؤشر

ت- الاستجابة

ث- التعزيز

٥- عدد من التجارب تم عملها على عملية التعلم خصوصاً في مجال الإحباط والصراع. التجارب على الانواع الدنيا من الكائنات الحية كانت ناجحة في التنبؤ بسلوك حيوانات المعمل البسيط تحت ظروف محكمة.

٦- دولار وميلر استخدما عدداً من مفاهيم فرويد ودمجاها في مصطلحات نظرية التعلم. العمليات اللاشعورية ينظر لها على انها مؤشرات وحوافز غير مميزة او معنونة. ميكانيزمات الدفاع ومراحل النمو الاربع والمرتبطة بعملية التعلم ساعدت على شيوع مفاهيم فرويد واثارت مزيداً من البحوث حولها.

٧- نظرية دولار وميلر في الشخصية تهدف الى تكوين انموذج علمي وتضع تركيزاً ملحوظ على البحث الامبريقي.

المصادر:

١- شحاتة محمد ربيع (٢٠١٧): علم النفس الشخصية ، دار المسيرة ، عمان ، ط٣.

٢- جابر عبدالحميد جابر (١٩٩٠) : نظريات الشخصية ، دار النهضه العربية ، مصر ط١.

٣- عبدالرحمن محمد السيد (١٩٩٠) : نظريات الشخصية دار قباء للنشر والتوزيع القاهرة الطبعة الأولى.

٤- انجلر باربارا (١٩٩١) : نظريات الشخصية ترجمة فهيم عبدالله ودايم.